المبادئ التربوية عند ابن قيّم الجوزية في تفسيره - الإيمان بالله والتوحيد أنموذجًا-

سوران فرج عبد الله و كامران محمد حمه

قسم الدراسات الإسلامية،كلية العلوم الإسلامية،جامعة السليمانية، السليمانية، اقليم كوردستان، العراق

المستخلص- تهدف هذه الدراسة الكشف عن حقيقة (الإيمان بالله وتوحيده) كنموذج للمبادئ التربوية عند عالم جليل وهو ابن قيّم الجوزية من خلال تفسيره، وتهدف إلى الكشف عن مفهومها وأنواعها والغاية منها، وإبراز أثرها التربوي على الفرد المسلم في جميع مراحل حياته داخل المجتمع، وهذه الدراسة بحث مستل من رسالة الماجستير في كلية العلوم الإسلامية، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة السليمانية، ولتحقيق أهداف الدراسة اتبع الباحث المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يعتمد على جمع المعلومات وتحليلها واستقرائها.

وتحقيقًا لهذا الهدف فقد تضمنت الدراسة على مقدمة وأربعة مطالب:1-السيرة الذاتية لابن قيّم الجوزية والتي تتضمن اسمه ونسبه ومولده ووفاته ومذهبه ونشأته ومكانته العلمية وشيوخه وتلاميذه باختصار. 2- مفهوم المبدأ والتربية ويتضمن تعريفهما لغةً واصطلاحًا والفرق بين المبادئ والقِيَم، وكذلك التربية لدى المربيين والفلاسفة.3- مفهوم الإيمان بالله وتوحيده وبيان أنواعه من الرّبوبية والألوهية والأسماء والصفات، 4- والآثار التربوية للإيمان بالله وتوضيح تلك الآثار بمفهومه الصحيح على الجوانب المختلفة للفرد والمجتمع، مع الخاتمة التي تشتمل على نتائج الدراسة والتي من أهمها التوصل إلى أن التوحيد يستمد من القرآن والسنة النبوية، وأن له تأثيرًا كبيرًا على سلوك المؤمن به، وذلك من خلال علاقته بربّه، وتعامله مع أفراد مجتمعه، وانعكاس ذلك على جوانب الحياة المختلفة، كما بينت التوصية في سطور والتي هي دعوة القائمين على الشؤون التربوية الأخذ بعين الاعتبار أهمية عقيدة التوحيد وغرسها في أجيال المتعلمين عن طريق المناهج الدراسية خاصة التربية الإسلامية، لما لها من تأثير على سلوك الفرد منذ صغره، وانعكاس ذلك على المجتمع في المستقبل.

الكلمات الدالة - المبدأ - التربية وأثرها- ابن القيّم - الإيمان بالله – التوحيد .

1. المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد الهادي الأمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين، ومن سار على دربه إلى يوم الدين وبعد:فإن العقيدة هي الأساس الذي يقوم عليه بنيان الأمم، فصلاح الشعوب مربوط بسلامة عقيدتها والتمسك بمبادئها وقيمها، قال تعالى:﴿ اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ [الأعراف:59]، والغاية من الخلق هي عبادة الخالق وحده لا شريك له، وهذا حق الله سبحانه على عباده، وهذا الحق العظيم يسمى التوحيد؛ والتوحيد: أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - :«من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله؛ دخل الجنة »، فهو أول واجب، وآخر واجب، فالتوحيد: أول الأمر وآخره.

كما يقول ابن القيّم: جميع الكتب السماوية وجميع الرسل - عليهم السلام - دعوا إلى التوحيد، ونهوا عن الشرك والتنديد، والقرآن الكريم، بل كل آية في القرآن الكريم فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به، وداعية إليه، أمر به وفرضه وقرره، وأخبر أنه لا نجاة ولا سعادة إلّا بالتوحيد.

والإيمان بالله وتوحيده يترتب على الفرد والمجتمع آثار تربوية إيجابية لتكوين الفرد المتوازن نفسيًا وعاطفيًا، جسديًا وروحيًا، وذلك بحسن التوجيه وحسن الحوار مع الأطفال، ومعالجة مشاكلهم النفسية...؛ مما يساعد على تكوين شخص فاعل وعضو نافع لمجتمعه .

لكون الإيمان بالله هو صمام الأمان لإيجاد التوازن في الرغبات النفسية والأهواء التي هي منشأ لكثير من الاضطرابات، والإيمان بالله يعتدل سلوك الإنسان ويتوازن جسده مع روحه وتتكامل صورة الحياة عنده، وبالتالي سيحدث ذلك في نفسه طمأنينة والهدوء.

ويعتبر ابن القيّم أحد علماء البارزين الذين أهتمو ا بالمسائل التربوية ورائدًا فيها، وخاصة في جوانب العقدية والتعبدية، لذلك قام الباحث باختيار هذا الموضوع من منظوره، معتمدًا على تفسيره(بدائع التفسير) .

1.1.أهمية الدراسة:

تأتي أهمية الدراسة الحالية عن أهمية مفهوم المبادئ والتربية، وأهمية الإيمان بالله سبحانه المتمثلة في توحيد الرّبوبية والألوهية والأسماء والصفات.

2.1.مشكلة البحث:

لقد اهتمت الشريعة الإسلامية بتقوية الإيمان بالله في نفوس الناشئ المسلم عبر غرس العقيدة والأعمال الحسنة والمبادئ والقيم الفاضلة التي تدخل في مفهوم الإيمان بالله، ولاشك بأنه يترتب على هذا الإيمان العديد من الآثار التربوية التي تعكس على حياة الفرد والمجتمع باعتبار أن الاعتقاد بها يتطلب العمل بها، وتحويل ذلك الإيمان إلى المبادئ

مجلة جامعة التنمية البشرية

المجلد 9، العدد 1(2023) ؛ عدد الصفحات (9)؛ معرف الكائن الرقمي: 10.21928/juhd.v9n1y2023.pp38-46

ورقة بحث منتظمة: أُستلم البحث في 15 أيلول 2022؛ قُبل في 2 تشرين الثاني 2022؛ نُشرت في 15 كانون الثاني 2023؛

البريد الإلكتروني للمؤلف :soran.abdullah@univsul.edu.iq .kamaranmohamads05@gmail.com

حقوق الطبع والنشر ©2023 سوران فرج عبد الله و كامران محمد حمه. هذه مقالة الوصول اليها مفتوح موزعة تحت رخصة المشاع الإبداعي النسبية - CC BY-NC-ND 4.0

والقِيَم وتظهر في حياة الفرد، ومن هنا جاءت الدراسة الحالية للكشف عن مبدأ التوحيد وآثاره التربوية عند أحد علماء المسلين وهو الإمام ابن قيّم الجوزية.

3.1.حدود الدراسة:

اقتصرت الدراسة الحالية على الإيمان بالله وآثاره التربوية، ومن الواضح أن مفهوم الإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده بالضرورة، والإيمان بوحدانيته في ربوبيته وألوهيته، وصفاته العليا(القرضاوي،2010م، ص3-4)، لذلك أوردت مبدأ التوحيد والإيمان بالله معًا كمبدأ واحد،لأن التوحيد يدخل في معنى الإيمان بالله تعالى ومتمم له؛ والآثار التربوية: تعني مجموعة من الانعكاسات التربوية التي يخلفها الإيمان بالله على الفرد والمجتمع.

4.1.أسباب اختيار الموضوع:

الرغبة لدى الباحث في معرفة الإيمان بالله وتوحيده، وأثره التربوي على الفرد، ومعرفة وجهة النظر ابن القيّم في هذا الموضوع.

5.1.أهداف البحث:

الهدف من كتابة هذا البحث هو أن نسلط الضوء على جانب من الجوانب المهمة في حياتنا ألا وهو الإيمان بالله تعالى وتوحيده وبيانه كمبدأ عند الإمام ابن قيّم الجوزية.

6.1.أسئلة الدراسة:

حاولت الدراسة الحالية الإجابة عن الأسئلة التالية: ماهو مفهوم المبدأ والتربية؟ وما هو الإيمان بالله وتوحيده عند ابن القيّم؟ وما آثاره التربوية؟

7.1.هيكل البحث: وقد قسمتُ البحث على مقدمة وأربعة مطالب وخاتمة، كالآتي:

المطلب الأول: السيرة الذاتية لابن قيّم الجوزية.

المطلب الثاني: مفهوم المبدأ والتربية.

المطلب الثالث: مبدأ التوحيد عند ابن القيّم.

المطلب الرابع: الآثار التربوية لمبدأ الإيمان بالله والتوحيد.

والخاتمة: بيان أهم نتائج الدراسة وتوصياتها.

2. المطلب الأول:
السيرة الذاتية لابن قيّم الجوزية

الإمام ابن القيّم هو من أحد أعلام المسلمين البارزين، ولقد ترجم عنه الكثير من العلماء في كتب التراجم والأعلام، لذلك تعددها دليل على مكانته- رحمه الله - .

1.2. أولًا: اسمه ونسبه وشهرته:

هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزُّرعي ، ثم الدمشقي، الحنبلي، المشهور بابن قيّم الجوزية، أو بابن القيّم، ويلقب بشمس الدين، ويكنى بأبي عبد الله. (ابن كثير،1988م،14،243) و (ابن رجب،1953م،2،447) و (أبوزيد،1423ه،17).

واشتهر بابن قيّم الجوزية: لأن والده كان قَيِّمًا - مشرفًا- على المدرسة (الجوزية) وهي من أعظم مدارس الحنابلة بدمشق الشام، نسبة إلى واقفها محيي الدين أبو المحاسن يوسف بن عبد الرحمن بن علي بن الجوزي المتوفي سنة656ه (ابوزيد،1423 ه،24) و(بدران،1985م،227)، لذلك قال عنه ابن كثير بأنه :" امام الجوزية وابن قيّمها " (ابن كثير،1988م،14 ،234) وكان والد ابن القَيِّم أشهر من تولى هذا المنصب، فصار هو المراد عندما يقال: (قيّم الجوزية)، وغلبت هذه الشهرة على ابنه، حتى صار لا يُعرف إلّا بها. (أبو زيد،1423ه، 26)

2.2.ثانيًا: مولد ابن القيّم ونشأته ومذهبه ووفاته:

1.2.2. مولده :

ولد ابن القيّم - رحمه الله – في دمشق سنة 691 هـ (ابن رجب،1953م، 2،449) ، وذكر الصفدي –- يوم ولادته وشهرها، فقال: "مولده سابع صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة". وتابعه على ذلك: السيوطي، ثم الداودي . (الصّفدي،2000م، 2، 195) و (أبو زيد،1423ه، 21)

2.2.2. نشأته :

نشأ ابن القيّم نشأةً صالحة فقد وُلد - رحمه الله - من أبوين صالحين، ونشأ في بيت علم ودين وورع، فابتدأ بأخذ العلم في صغرِه، وكان يتردّد على والده الذي كان ناظرًا للمدرسة الجوزية، ونشأ في أحضان العلم وحلقات الدرس وكان في طلبه للعلم حُراً مُختاراً، حيث قرأ على كثير من الشيوخ، وسمع الدروس من كثير من العلماء في مدينةِ دمشق، ثمّ ارتحل إلى مصر ونابلس والقدس وطرابلس ومكة لطلب العلم، وحَجَّ مرات كثيرة، وجاور بمكة (الغنيمي،1981م ،100) و (الشامي،2008م، 39-41) ،وبرع في العلوم المتعددة، لا سيما علم التفسير والحديث وأصول الدين مع أصول الفقه (ابن كثير،1988م، 14،234)، وكان- رحمه الله - شديد الاعتداد برأي شيخه ابن تيمية دون تعصب ولاتقليد بل عن اجتهاد وموافقة وقرار منه لشيخه ما أدّى إليه اجتهاده . (الغنيمي،1981 م،137)

3.2.2. مذهبه :

أما مذهبه فقد كان ابن القيم -رحمه الله – فقيهًا حنْبليًا، كأسلافه وعقبه، ولكن حظه منه الاتباع لما أيده الدليل، ونبذ التعصب. (أبو زيد،1423ه، 73)

4.2.2. وفاته:

وتوفي - رحمه الله - في ليلة الخميس 13 رجب سنة (751هـ) الموافق لسنة(1352م) في وقت أذان العشاء، وقد كان عمره عند وفاته ستون سنة. وصلّى عليه من الغد بالجامع الأموي عقيب الظهر، ثم بجامع جراح، ودفن بمقبرة الباب الصغير. (ابن عماد،1979م، 170)، (المراغي،1947م، 162)

3.2.ثالثًا: مكانته العلمية، وثناء العلماء عليه :

لقد وُصف خُلق ابن القيّم وعلمه من قبل كثير من العلماء لايتسع المقام لذكرها ، لذلك نكتفي هنا قول تلميذَيه ابن كثير وابن رجب الحنبلي، لأنهما يحكيان عن المشاهدة لا الرواية. يقول ابن كثير-رحمه الله-:" ... وسمع الحديث، واشتغل بالعلم، وبرع في علوم متعددة، لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين-أصول الدين وأصول الفقه-، ولما عاد الشيخ تقي الدين بن تيمية من الديار المصرية في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علمًا جمًّا"(ابن كثير،1988م، 234)، ... ولقد قدّر له أهل العلم هذا الفضل، حتى أن مَن ترجمَ له أثنى عليه، يقول ابن كثير عن أخلاقه: إنه ذو عبادة وزهد وتقوى، وعدم الحقد والحسد، وكان حسن الخلق، كثير التواد، لا يحسد أحدا ولا يؤذيه، ولا يستعيبه ولا يحقد على أحد، وكان ابن كثير من أصحب الناس له، وأحب الناس إليه. (ابن كثير،1988م، 235)

وبدأ ابن رجب ترجمته بقوله:"... وَكَانَ عارفا بالتفسير لا يجاري فِيهِ، وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى. والحَدِيث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق فِي ذَلِكَ، وبالفقه وأصوله وبالعربية، وَلَهُ فِيهَا اليد الطولى..."(ابن رجب،1953م، 448)

4.2.رابعًا: آثاره العلمية

ترك الإمام ابن قيّم الجوزية - رحمه الله - تركة عظيمة من المصنفات التي عالجتْ فنوناً متعددة، وعلوماً كثيرة من : التفسير ، والفقه، والتوحيد، واللغة، والتربية، وغير ذلك، ولقد عاش ابن القيم متفاعلا مع أحداث عصره، وقضايا مجتمعه، ومن ثَمَّ جاءت أكثر مؤلفاته تعالج تلك المشاكل، وتضع الحلول لكثير منها. (عبد الحميد، 1990م، 150)

لقد ذكر تلميذاه الصفدي في (الوافي بالوفيات) ، وابن رجب في(الذيل على طبقات الحنابلة)، جملة من مؤلفات ابن القيم حيث تبلغ (52) كتاباً(الصّفدي،1988م، ج2، 195) و(ابن رجب، 1953م، ج2، 448)، فإنهما لم يذكرا كل كتبه، بل ذكرا المشاهير من مؤلفات المترجَم له، ويقول الشيخ بكر أبو زيد: "لهذا فقد أستدرك من بعدهما بزيادة ما وقع لهم، فبلغ مجموع الزيادة ممن ذكر على ما ذكر ابن رجب والصفدي (25) كتاباً". (أبو زيد،،1423، 196)

ثم قال أبو زيد أنه حصل على جملة أخرى من مؤلفات ابن القيّم من ثنايا كتبه ومن غيرها فبلغت(22) كتاباً، فبالتالي صار المجموع حسب التتبع والاستقراء(98) كتاباً. (أبو زيد،197،1423)

5.2.خامسًا: طلبه للعلم، وأشهر شيوخه وتلاميذه:

وقدعُرف ابن القيم -رحمه الله- برغبة كثيرة في طلب العلم وتحصيله، منذ نعومة أظفاره.

وكان يتلقى كل علم عن البارزين المتخصصين فيه :

فقد قرأ العربية على ابن أبي الفتح البعلبكي المتوفي سنة 709هـ ، والمجد التونسي ، وأخذ الحساب والفرائض عن والده قيّم الجوزية .

وأخذ الحديث عن الشهاب النابلسي العابر المتوفي سنة 697هـ ، والقاضي تقي الدين سليمان المتوفي سنة 715هـ، وأبي بكر بن عبد الدائم المتوفي سنة 718هـ ، وإسماعيل بن مكتوم المتوفي سنة 716هـ، وفاطمة بنت جوهر المتوفية سنة 711هـ ، والحافظ المزي المتوفي سنة 742هـ، ومن في طبقتهم.

وقرأ الفقه على المجد الحراني المتوفي سنة 729هـ، وشيخ الإسلام ابن تيمية المتوفي سنة 728هـ، وهو أبرز شيوخه، وأكثرهم تأثيراً عليه.

وقرأ أصول الدين على الصفي الهندي المتوفي سنة 715هـ، وابن تيمية - .(القحطاني،1427 هـ،29-30) (أبو زيد:1423هـ،161-177)

وقد تتلمذ عليه جماعة من أهل العلم، ومن أشهرهم : الحافظ ابن كثير، المتوفى سنة 774هـ ، وابن رجب الحنبلي، المتوفي سنة 795هـ، ابن قدامة المقدسي المتوفي سنة 744هـ، ابنه برهان الدين إبراهيم المتوفى سنة 767 هـ، ابنه عبد الله ، الذي تولى التدريس بالصدرية بعد وفاة والده، توفي سنة 756 هـ، محمد شمس الدين النابلسي المتوفى سنة 797هـ ، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله الصّفدي المتوفي سنة 764هـ. (القحطاني،1427هـ ،30-31) (أبو زيد:1423هـ، 161-177)

3. المطلب الثاني:
مفهوم المبدأ والتربية:

1.3. أولًا: تعريف المبادئ في اللغة والاصطلاح:

المبادئ في اللغة: الباء والدال والهمزة من افتتاح الشيء، يقال: بدأت بالأمر وابتدأت، من الابتداء. والله تعالى المبدئ والبادئ.(ابن فارس، 1979م، 213) والمبادئ جمع مَبدَأ، مصدر ميمي من بَدَأ(عمر،2008م، 168) ، ومبدأ الشيء أوله ومادته هو الذي منه يتركب، أو منه يكون، فالحروف مبدأ الكلام، والخشب مبدأ الباب والسرير، والنواة مبدأ النخل، يقال للسيد الذي يبدأ به إذا عدّ السادات: بَدْءٌ.(الأصفهاني،1412هـ ،113)

وجاء في لسان العرب: (بدأ) في أسماء الله - عز وجل- المبْدِئ: هو الذي أنشأ الأشياء واخترعها ابتداء من غير سابق، ...وبدأت الشيء: فعلته ابتداء، وبادئ الرأي: أوله وابتداؤه... وبدأ الله الخلق بدءًا وأبدأهم بمعنى خلقهم. (ابن منظور،1414هـ، 26-29)

ولم يذكر لفظ مبدأ في القرآن الكريم وإنما وردت مشتقاته في آيات كثيرة تدور في معنى المبدأ منها:

1- بَدَأ: قال تعالى: ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بَدأ الخلق﴾[العنكبوت: 20].
2- يُبْدِئُ: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: 13]، والله المبدئ المعيد.(الزمخشري،1998م، 49)
3- بادئ: ﴿ هم أراذلنا باديَ الرأي ﴾[هود:27]أي: ما يبدأ منه وهو الرأي الفطير يبدو قبل إنعام النظر يقال فعلته بادئ الرأي. (مصطفى وآخرون،2008م، 42)

المبادئ في الاصطلاح:

هناك تعاريف عدة لمصطلح المبادئ نذكر أهمها:

1. المبدأ: "إن كلمة مبدأ تعبر عن فكرة عامة شاملة تنبثق عنها أفكار فرعية أو تنظم على ضوئها عمليات فيزيائية أو كيميائية، أو علاقات اجتماعية، وتأتي المبادئ غالباً مصرحاً بها أو متضمنة في البحوث أو القصص أو التشريعات، أو مجموعة مرتبة في العلوم الطبيعية. ويقصد بالمبادئ التربوية ماتقوم عليه التربية من مبادئ". (النحلاوي،1985 م،55)
2. المبدأ في مجال التربية: "قاعدة تنظم السلوك، أو تلتزم في الإنتاج الفني، مثل مبادئ الأخلاق ومبادئ الفن ".(المذكور،1983، 67)
3. المبدأ: قاعدة أخلاقية، أو عقيدة يلتزم بها المرء في سلوكه، يقال : فلان ذو مبدأ نبيل، ويعتبر المبدأ من معيار العلمية تبنى عليه قِيَم الأعمال. (عمر، 2008م، 168)
4. المبدأ في مجال التربية الإسلامية: "هي مجموعة القواعد والأسس والأفكار المستنبطة من القرآن والسنة التي تقوم عليها النظرية التربوية في الإسلام، أو المنهج التربوي الإسلامي". (خياط، 1996م، 21)

اذاً بناءً على التعريفات السابقة يستنتج الباحث تعريفاً شاملاً للمبادئ: وهي عبارة عن مجموعة من القواعد والضوابط والأفكار الأساسية والأخلاقية التي يندرج تحتها أفكار فرعية أخرى، ويلتزم بها المرء في سلوكه وتعامله، ويحتكم إليها في تبيين مشروعية أفعال الأشخاص من عدمها، فإذا أطلق المبادئ في أي مجال يكون المقصود منها مكوناته وأساسياته، مثلا لو قلنا مبادئ العقيدة، كان المقصود بها أركان العقيدة وثوابتها، وإذا قلنا مبادئ الديمقراطية أي عناصرها ومقوماتها ، وهكذا.

ولكي يبين لنا مفهوم المبادئ وماهيتها أكثر ، لا بد لنا أن نلقي الضوء على تعريف (القِيَم)، والفرق بينها وبين المبادئ، لأنها مكمل لتعريف المبادئ ومفهومها.

تعريف القِيَم:

1-تعريف القِيَم في المعجم الفلسفي:"هي أحكام مكتسبة من الظروف الاجتماعية يحكم بها الفرد وتحدد مجالات تفكيره، وتحدد سلوكه وتؤثر في تعلمه. فالصدق والأمانة والشجاعة وتحمل المسؤولية، كلها قيم يكتسبها الفرد من المجتمع الذي يعيش فيه، وتختلف القيم باختلاف المجتمعات، بل والجماعات الصغيرة".(خياط، 1996م، 31)

والقيم في المنظور الإسلامي: "هي مجموعة المبادئ والقواعد الكلية والمثل العليا التي نزل بها الوحي، والتي يؤمن بها الإنسان وتحدد سلوكه في ضوئها وتكون مرجع حكمه في كل ما يصدر عنه من أفعال وأقوال وتصرفات تربطه بالله والكون".(محمد،2017م، 864)

وبناء على ما سبق يستنتج الباحث بأن:

1-- المبدأ هو الأساس الثابت الذي يبنى عليه غيره، وسائد عند كل الأفراد كالصدق والإخلاص والوفاء بالعهد، بينما القيم تتغير من مجتمع إلى آخر لذلك فهي قابلة للتغيير حسب المبادئ والمعتقدات لتلك المجتمع كالعِلم والمال.

2-المبادئ أعم من القيم، لأنها كونية عالمية للناس جميعاً ولا يمكن لأحد أن يتخطاها، لأنها من الأساسيات، والقضايا كبرى في الحياة،كالإيمان بالله تعالى وتوحيده.

3- أحياناً هناك اشتراك بين المبدأ والقيم: فمثلاً الحرّية من المبادئ الكبرى التي تحكم مبادئ الناس، ويمكن للشخص أن يقول الحرية عندي من القِيَم العليا، في هذه الحالة يصح أن تكون الحرية مبدأً وقيمةً.

4- المبادئ تستنبط من المصادر والمراجع الأساسية، وأفضل المبادئ هي ما جاءت في كتاب الله وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

2.3. ثانيًا : مفهوم التربية في اللغة و الاصطلاح

التربية في اللغة: لها دلالات متعددة منها:

1-الإصلاح: (رَبَّ-يربُ) إصلاح الشيء والقيام عليه. والرب: المصلح للشيء. يقال رب فلان ضيعته، إذا قام على إصلاحها. (ابن فارس،1979م،ج2، 381)

2-ساسه وتولى أمره وملكه: جاء في المعجم الوسيط: إنها مأخوذة من كلمة (رب) الْوَلَد رَبًّا وليه وتعهده بِمَا يغذيه وينميه ويؤدبه، (ورب القوم) رَأْسهمْ وساسهم، وَ(رب) الشَّيْء ملكه وَجمعه. (مصطفى وآخرون،2008م، 321)

وجاء في كتاب العين: (رب) مَن مَلك شيئاً فهو رَبُّه، ولا يُقال بغير الإضافة إلاّ للهِ عزّ وجل، وإذا أُطْلِق عَلَى غيره أُضِيفَ. (الفراهيدي،د.ت،ج8، 256- 257)

ويقول ابن قيم الجوزية: والرّب: هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح. (ابن القيم،1427ه، ج1، 106)

3-التربية والتعليم : قال ابن الأثير: "الرباني منسوب إلى الرب، بزيادة الألف والنون للمبالغة؛ وقيل: هو من الرب، بمعنى التربية، كانوا يربون المتعلمين بصغار العلوم، قبل كبارها. والرباني: العالم الراسخ في العلم والدين، وقيل: الرباني: العالي الدرجة في العلم". (ابن منظور،1414ه، ج1، 404)

4-الزيادة والنماء: (رَبَا-يربو) إذا زاد وعلا، قال تعالى: ﴿ فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: 5]، أي: زادت زيادة المتربّي، و(الرِّبَا) الزيادة على رأس المال، لكن خصّ في الشرع بالزيادة على وجه دون وجه،قال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ﴾ [البقرة: 276].(الأصفهاني،1412ه، ج1، 340)،(المناوي،1990م، 94)

وجاء (رب)في القرآن الكريم بمعان منها: الإله المعبود، قال تعالى:﴿ *وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا* آمِنًا﴾ [البقرة:126]، والخالق والمالك، قال تعالى:﴿ رَبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق﴾ [الصافات:5]، والسيد والراعي، قال تعالى:﴿ *إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ*﴾ [يوسف:23]. (مدكور، 1989م،ج1، 462-464).

التربية في الاصطلاح:

يأتي الآن دور عرض مفهوم التربية اصطلاحاً عند المربيين و علماء التربية والفلاسفة، وقد تعددت معاني وتعريفات التربية لديهم نظراً لاتساع مدلولها، ومن أهمها:

أ-تعريفها عند علماء التربية والمربيين:

1-"هي عملية بناء شخصية الأفراد بناء شاملاً كي يستطيعوا التعامل مع كل ما يحيط بهم، أو التأقلم والتكَيُف مع البيئة التي يعيشون بها، وتكون التربية للفرد والمجتمع". (الشحود،2009م، 8))

2- التربية :"هي عملية التنشئة والرعاية والتوجيه من جانب الكبير تجاه الصغير, والعالم حيال المتعلم". (المرسي،1998م، 4)

3-التربية: "طريقة لإعداد المرء إعداداً صحيحاً وصالحاً ومتميزاً بسلوكه الفكري والإنساني، وبقدرته على الوصول إلى مصادر المعرفة، وتوظيفها في حل مشاكله ومشاكل مجتمعه". (صالح،2010م، 139)

ب- تعريف التربية عند الفلاسفة:

1- أفلاطون (427-347ق.م) ينظر إلى التربية نظرة أخلاقية وعرفها:"بأنها تدريب الفطرة الأولى للطفل على الفضيلة من خلال اكتسابه العادات المناسبة". (المرسي،1999م، 19) وعرّف أيضاً: التربية هي أن تضفي على الجسم والنفس كل الجمال والكمال. (الزنتاني، 1993م، 23)

2- ويقول جون ديوي في تعريف التربية: "إنها عملية مستمرة لإعادة بناء الخبرة بهدف توسيع وتعميق مضمونها الاجتماعي... ويجب أن تستهدف الإصلاح الاجتماعي من خلال تنمية إمكانات الفرد". (المرسي،1999م، 20)

3-ويرى (كانت) الفيلسوف الألماني:" إن التربية تصل الإنسان إلى كمال الممكن". (الزنتاني، 1993م، 23)

4-ويرى الإمام الغزالي: "إن هدف الأسمى للتربية هو التقرب لله تعالى والاستعداد للحياة الأخروية، ولذلك دعا إلى تربية الصبيان تربية دينية وخُلقية قوامها التقشف والزهد في الملّذات حتى البريئة منها". (الزنتاني، 1993م، 24)

بناءًا على ما سبق يستنتج الباحث أشمل التعريفات هو التعريف الآتي:

التربية: هي عملية التنشئة والرعاية والتوجيه من جانب الكبير تجاه الصغير ،ووسيلة إعداد الناشئ للدين والدنيا في آن واحد عقلياً وخُلقياً، وبناء شخصيَّته بناءًا متكاملًا متوازنًا معَ ما تتضمَّنُه الحياةُ الكريمةُ من قيمٍ بنّاءةٍ ، وجعله قادراً على اكتساب صناعة تناسب ميوله وطبيعته ، بهدف توظيفه في حل مشاكله ومشاكل مجتمعه، والتقرب لله تعالى والاستعداد للحياة الأخروية.

ويشار إلى علم التربية أحياناً بـ (البيداغوجيا-pedagogy) وهي كلمة ترجع جذورها إلى الإغريق تعني (توجيه الأولاد)، وتتكون من قسمين peid وتعني الولد وagogus وتعني التوجيه ،و البيداغوج عند الإغريق تعني المربي أو المشرف على تربية الأولاد. (مرسي،1999م، 17)

ومن الجدير بالذكر أن مصطلح (التربية) لم يستعمل في التراث الإسلامي قديمًا، وإنما أشارت إليها بمصطلحات أو ألفاظ قريبة من معناها، منها: (مصطلح التنشئة، والإصلاح وهو ضد الإفساد، والتهذيب، والتزكية، والتأديب أو الأدب، وأن مصطلح الأدب

والتأديب كثير الصلة بمصطلح التربية حيث يمكن أن تُشتق منه تسمية المعارف آداباً وتسمية التعليم تأديباً، وتسميةُ المربي أو المعلم مؤدباً. (الشحود، 2009م، 10)

ومصطلح الأدب أو التأديب مصطلحٌ شائعٌ ورد في بعض أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - منها:

عن جابر بن سَمُرة، أنَّ رسولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم – قَالَ: «لأَنْ يُؤَدِّبَ الرَّجُلُ وَلَدَهُ،خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ كُلَّ يَوْمٍ بِنِصْفِ صَاعٍ». (الترمذي،1975م، ج4، 337)، (الحاكم،1342ه، ج4، 263) وهنا نلاحظ من معنى هذا الحديث أن لفظ الأدب يدل على معنى كلمة تربية الأبناء على التحلي بمحاسن الأخلاق.

4. المطلب الثالث:
مبدأ التوحيد عند ابن القيّم:

قبل أن نتحدث عن تعريف كل من الإيمان والتوحيد لابد من أن نتحدث عن العلاقة بينهما ،وتعريف الإيمان بالله وما يندرج تحت تعريفه حتى يسهل الفهم منهما ، فالإيمان والتوحيد: هما لفظان متقاربان.(ابن العثيمين،1424م،ج11، 1)

فالتوحيد هو: إفراد الله -سبحانه وتعالى- بالعبادة، مع الاعتقاد الجازم بانفراده في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي ذاته، فلا نظير له،ولا مثيل له في ذلك كله. (يسري،د.ت،75) والإيمان هو: " اعتقاد بالقلب، وقولُ باللّسان، وعملٌ بالجوارح والأركان" (القرطبي، 1964م، ج1، 372)، وبينهما عموم وخصوص؛ فكل موحد مؤمن، وكل مؤمن موحد بالمعنى العام، ولكن أحيانا يكون التوحيد أخص من الإيمان، وأحيانًا يكون الإيمان أخص من التوحيد. (ابن العثيمين،1413 ه، ج1، 26)

وتعريف الإيمان بالله: هو الاعتقاد الجازم بوجود الله تعالى، وأنه رب كل شيء ومليكه، وأنه وحده المنفرد بالعبادة، والمتصف بصفات الكمال كلها، والمنزه عن كل عيب ونقصان.

وفي القرآن الكريم حين يتحدث عن أركان الإيمان ومتعلقاته يجعل الإيمان بالله أولها وأصلها، كما في قوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...﴾ [البقرة:285].

فالإيمان بالله هو الأصل، وكل أركان العقيدة الأخرى تابعة وفرع له ومبني عليه.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده بالضرورة، والإيمان بوحدانيته في ربوبيته وألوهيته، وصفاته العليا. (القرضاوي، 2010م، 3-4)

ويتضح مما سبق أن الإيمان بالله سبحانه يشتمل على معنى التوحيد وأقسامه الثلاثة وهي:توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات. (ياسين،د.ت،4)

وفيما يلي تفاصيل الكلام فيه:

1.4.التوحيد لغة واصطلاحًا:

من أهم مبادئ وأعظم أسس العقيدة هو توحيد الله سبحانه ، ولأنه من أصل الدين ولُبه، وثمرة الرسالة السّماوية، وفيه الاعتراف بعبودية الخلق وتعظيم الخالق.

والتَّوحيدُ لُغةً: الواو والحاء والدال: أصل واحد يدل على الانفراد. من الوحدة وهو واحد. (ابن فارس،1979م، ج6، 90)

وحكى سيبويه : الوحدة في معنى التوحد، وتوحد برأيه: تفرد به، ودخل القوم موحدًا موحدًا، وآحاد آحاد أي فرادى واحدًا واحدًا (ابن منظور، 1414ه، ج3، 149)، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة، ثم يطلق على كل موجود حتى أنه ما من عدد إلّا ويصح أن يوصف به، فيقال: عشر واحدة، ومائة واحدة، وألف واحد، والواحد ما كان واحدًا لعدم نظيره (الأصفهاني،1412ه، 857)، والله الأوحد والمتوحد: ذو الوحدانية. (الفيروز آبادي، 2005م، 324)

التوحيد اصطلاحًا: إفراد الله سبحانه،بإقبال إليه دون غيره،فيعبد وحده، ويحب وحده،ويُطاع وحده، ولايجعل معه إلهً آخر ، وهذا يشتمل على كل من الربوبيّة والألوهيّة والأسماء والصّفات . (ابن القيّم،1427، ج1، 145)

2.4. مبدأ التوحيد ومفهومه عند ابن قيّم الجوزية:

يقول ابن القيّم- رحمه الله-:"وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كلمة قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة، ونصبت القبلة ....، وهي كلمة الإسلام؛ ومفتاح دار السلام، وأساس الفرض والسنة، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة". (ابن القيّم،1991، ج1، 3-4)

ويقول: التوحيد الذي دعتْ إليه الرّسل –عليهم السلام-، نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد، وكل سورة في القرآن فهي متضمنة منهما ، بل نقول : إن كل آية في القرآن فهي تتضمن للتوحيد، وشاهدة به، وداعية إليه، لأن القرآن: إما خبر عن الله، أو أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري (الرّبوبية) ،وإمَّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، ونزع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي. (ابن القيّم،1996، 3 ، 417)

ويقصد بالمعرفة والإثبات، توحيد الرّبوبية وتوحيد الأسماء والصفات "لأن معرفة الله عز وجلّ إنما تكون بمعرفة اسمائه وصفاته، وأفعاله ؛ وإثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات والأفعال".

ويقصد بالطلب والقصد، توحيد الألوهية " لأن العبد يتوجه بقلبه ولسانه وجوارحه بالعبادة لله وحده رغبة ورهبة، ويقصد بذلك وجه الله، وابتغاء مرضاته". (السقّاف،1433ه، ج1، 160)

وقد جمع رحمه الله –أنواع التوحيد الثلاثة، وأقرّ بها في تفسيره لقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 21 -24].

ويقول: هذا استدلال في غاية الوضوح ونهاية البيان على جميع مطالب أصول الدين، من إثبات الخالق وصفات كماله؛ من القدرة والعلم والإرادة والحياة والحكمة، وأفعاله، وحدوث العالم- هذا توحيد الأسماء والصفات-، وإثبات نوعي توحيده تعالى، توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب الخالق الفاطر، وتوحيد الألوهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب الذي لا تصلح العبادة والذل والخشوع والحب إلّا له.(ابن القيّم، 1427ه، ج1، 105)

فقررت هذه الآيات جميع المطالب على أحسن وجه، فصدّرها -سبحانه وتعالى- بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾، وهذا خطاب لجميع الناس يشتركون كلهم في تعلقه بهم، ثم قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾، فأمرهم بعبادة ربهم؛ وفي هذا البرهان القطعي على وجوب عبادته وحده، دون غيره، لأن الله سبحانه أخرج عباده من العدم إلى الوجود ، ثم قال: في ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾، فإذا كان الله وحده خالقًا ،فكيف لا يكون وحده معبودًا ؟! وكيف تجعلون معه نِدًّا في العبادة وأنتم مقرون بأنه ليس له شريك في الخلق ؟! وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية. (ابن القيّم،1427ه، ج1، 106)

والعلاقة بين توحيد الرّبوبية وتوحيد الألوهية هي التلازم، بمعنى أن الإقرار بتوحيد الرّبوبية يوجب الإقرار بتوحيد الإلهية والقيام به ظاهرًا وباطنًا. (فوزان، 1987م، 15)

ويبين -رحمه الله- في معرض تفسيره لسورة الفاتحة أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم:

النوع الأول: التوحيد العلمي، نوع في العلم والاعتقاد، فهذا النوع من التوحيد: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص، وإثبات الحمد له سبحانه.وهذا النوع من التوحيد أفصحت عنه في سورة الإخلاص.

النوع الثاني: نوع في الإرادة والقصد، أو التوحيد القصدي الإرادي، وهذا الثاني أيضًا نوعان : توحيد في الرّبوبية، وتوحيد في الإلهية، فهذه ثلاثة أنواع. (ابن القّم،1427، ج1، 37)

ويقول ابنُ القَيّم أيضا عن مفهوم توحيد الربوبية: "فيشهد صاحبه قيّومية الرّب تعالى فوق عرشه، يدبر أمر عباده وحده، فلا خالق ولا رازق، ولا معطي ولا مانع، ولا مميت ولا محي، ولا مدبر لأمر المملكة ظاهرًا وباطنًا غيره، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يجري حادث إلا بمشيئته...، فهذا جمع توحيد الربوبية." (ابن القيّم، 1996م، ج3، 471)

وأما جمع توحيد الإلهية، فهو "أن يجمع قلبه وهمه وعزمه على الله، وإرادته، وحركاته على أداء حقه تعالى، والقيام بعبوديته سبحانه، فتجتمع شئون إرادته على مراده الديني الشرعي"(ابن القيّم، 1996م، ج3، 371)

ويقول أيضًا عن توحيد الأسماء والصفات: "كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه، فإن القرآن: إمَّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإمَّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي... ، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم". (ابن القيّم، 1996م، ج3، 317))

3.4. يستنتج الباحث مما سبق من كلام ابن القيّم تعريف توحيد كل من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات عنده كالآتي:

1- إن توحيد الربوبية عند ابن القيّم هو: الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه الرّب الخالق الفاطر السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، وأنه هو الرّب كل شيء ومدبر كل أمر، ورزّاق كل حيّ، ولا مدبر لأمر المملكة ظاهرًا وباطنًا غيره، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يجري حادث إلا بمشيئته، ولا شريك له في أمور كلها.

2- وتوحيد الإلهية عنده : إفراد الله تعالى بالعبادة والخضوع والطاعة ، وأن يجمع قلبه وهمه وعزمه على الله، وإرادته، وحركاته على أداء حقه ، والقيام بعبوديته سبحانه، فتجتمع شئون إرادته على مراده الديني الشرعي فلا يعبد إلا الله وحده بالخشوع والذل والانقياد، ولا يشرك به شيء في الأرض أو في السماء. ولا يتحقق التوحيد ما لم ينضم توحيد الإلهية إلى توحيد الربوبية.

بمعنى آخر أن توحيد الرّبوبية وحده لا يخرج الإنسان عن الشرك –بمنظور ابن القّم- ،إذا لم يتحقق معه توحيد الألوهية، لذلك يتحدث ابن القيّم عن توحيد الرّبوبية، الذي كان اعترف به مشركو العرب ، ولم يخرجوا به عن الشرك، لعدم إيمانهم بتوحيد الألوهية، بل جعلوا له شريكًا في عباداتهم،كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف:87]؛ وفي موضع آخر يقول سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ لِمَنِ الأَرضُ وَمَنْ فِيهَا، سَيَقولونَ للهِ﴾ [المؤمنون:84-85]، ولهذا يحتج عليهم به على توحيد الإلهية، وأنه لاينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره ولارّب سواه. (ابن القيّم،1427هـ ،ج1، 43)

3- توحيد العبادة، أو توحيد الألوهية، أو الإلهية، أوتوحيد الطلب والقصد، أسماء لمسمى واحد ، وهو من أهم أنواع التوحيد، إذ هو الفارق بين الموحِدين والمشركين؛

4- وتوحيد الأسماء والصفات: وهو اعتقاد انفراد الرب- جل جلاله- بالكمال المطلق في سلطانه وإرادته وعلمه وحكمته وحياته، فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته ، فلا شبيه له فيه من جميع الوجوه ، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، من جميع الأسماء والصفات ومعانيها، على الوجه اللائق بعظمته من غير نفي لشيء منها ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه من النقائص والعيوب، وعن كل ما ينافي كماله.

5- ويتضح مما سبق أن الإيمان بالله عند ابن القيّم يتضمن بثلاثة أمور، الإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، فلا يتحقق الإيمان للعبد إلّا بهذه الأمور، فمن لم يؤمن بواحدٍ منها فليس بمؤمن، حتى يؤمن بها.

5. المطلب الرابع:
الآثار التربوية لمبدأ الإيمان بالله وتوحيده:

جميع الكتب السماوية وجميع الرسل-عليهم السلام- دعوا إلى التوحيد، ونهوا عن الشرك والتنديد، والقرآن أمر به وفرضه وقرره، وأخبر أنه لا نجاة ولا سعادة إلا بالتوحيد.

فالتوحيد هو حق الله الواجب على العبيد، وهو أعظم أوامر الدين وأصل الأصول كلها، وأساس الأعمال. (آل سعدي،1421، 17) ومن ناحية أخرى، فإن هناك أفكارًا ومعاني كثيرة تتصادم مع التوحيد مباشرة، وكان لها جذور وثبات في أعراف الجاهلية وتقاليدها، ثم كنسها الإسلام كنسًا، ولم يسمح لا بقليل منها ولا كثير، مثل :الذبح لغير الله تعالى، واعتقاد النفع والضر في غيره، والظن بأن الأسباب تفعل بنفسها، والحلف بغيرالله تعالى، وغيره، وهذا يعني، في حقيقته، أن التوحيد مثل المصفاة التي استبعدت هذه الأفكار والعادات والتقاليد من حياة المسلم وعقله، أو القيمة التي قدرت عدم توافقها مع بنيان الإسلام وطبيعته.(فولي ،2014م، 29)

وللإيمان بالله وتوحيده آثار ودلالات تربوية كثيرة ومتعددة في حياة المسلم ،نذكر أهمه:

1- يجب على المربيين والمعلمين الاهتمام بغرس التوحيد في نفوس الناشئة ورعايته، وربطهم بخالقهم سبحانه في جميع شؤون حياتهم، وقد كان القرآن الكريم مشتملًا على جميع أنواع التوحيد، ويقول ابن القيّم: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، وشاهدة به، وداعية إليه. (ابن القيّم، 1996م، ج3، 417)

2-كلما ازداد الإيمان بصفات الله سبحانه ، كُلَّما انعكس ذلك على تعامل العبد معه ، بمعنى أنه كلَّما ازدادت الثقة في الله الحكيم ازدادت حالة الرضا عند العبد، وكلَّما ازدادت الثقة في قيُّومِيّة الله وإحاطته بكل شيء ازدادت حالة التقوى والتوكل على الله، ويجعل في قلبه الإيمان بالله مثله الأعلى؛ ووصف الله نفسه في القرآن الكريم بأن له المثل الأعلى،بقوله: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل:60]، يقول ابن القيّم:" المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي والخبر عنها، وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه. (ابن القيّم،1427هـ، ج2، 112-113)

3-إن النفس البشرية فُطرت على الإيمان بوجود الله، لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:172]، فالإنسان مهما كان سنه، وعلمه، ومعيشته، ودينه، بحسب فطرته مؤمنًا بأنه لا إله إلا الله.

يقول ابن القيّم في تفسير هذه الآية: "وأحسن ما فسرت به الآية قوله صلى الله عليه وسلم :« كل مولود يولد على الفطرة: فأبواه يهودانه وينصرانه ». (الألباني، 2002م، ج1، 650)، (مسلم، د.ت، ج4، 2047) فالميثاق الذي أخذه سبحانه عليهم، والإشهاد الذي أشهدهم على أنفسهم، والإقرار الذي أقروا به، هو الفطرة التي فطروا عليها؛ لأنه سبحانه احتج عليهم بذلك، وهو لا يحتج عليهم بما لا يعرفه أحد منهم ولا يذكره، بل بما يشتركون في معرفته، والإقرار به". (ابن القيّم، 1427هـ، ج2، 421-422)

4- الإيمان بالله يجلب لصاحبه السعادة في الدنيا، كون المؤمن بفطرته سعيد، لأنه استقرّ في قلبه ينابيع الفرح والسرور، وينزل الله في قلب عبده السكينة والوقار عند المخاوف ، فلا يتزعزع عند اضطرابه بالشدائد، ويجلب له زيادة الإيمان واليقين والثبات، لقوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح:4]، يقول ابن القيّم- رحمه الله- في ثمرة هذه السكينة: "هي الطمأنينة للخير تصديقًا وايقانًا وللأمر تسليمًا ، فلا تدع شبهة تعارض الخير، ولا إرادة تعارض الأمر، فلما تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوساوس الشيطانية التي يبتلى به العبد؛ ليقوى إيمانه؛ ويرفع عند الله ميزانه وذلك بسبب دفعها وردها وعدم السكون إليها، فلا يشك المؤمن أنها لنقص درجته عند الله. (ابن القيّم،1427هـ، ج2، 459)

5- أن للإيمان آثاراً عظيمة في تحقق تقدم الإنسان وارتقائه وتكامله، وهو سر نجاحه ، وكثيرًا ما عبر عنه بأنه الأساس القوي لاستقرار الإنسان وطمأنينة نفسه، وله قدرة عظيمة في معالجة الآلام الروحية و النفسية وايجاد سكون القلب بعيدًا عن اضطرابات.

وذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، وقد أدرك ابن القيّم معناها بحيث يقول:" الطمأنينة تعني سكون القلب إلى شيء، وعدم اضطرابه وقلقه". (ابن القيّم،1427هـ، ج2، 88)

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم :«ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب». (الألباني، 2002م، ج1، 37)،(مسلم، د.ت، ج3، 1219)

6- الغاية العظمى للتربية الإيمانية: هي تحقيق معنى العبودية لله تعالى؛ انطلاقًا من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56].فالهدف الأساسي لوجود الإنسان في الكون هو عبادة الله،والخضوع له، وإعمار الأرض؛ بوصفه خليفة الله فيها. (الشحود،2009م، ج1، 13-14)

ويترتب على تحقيق معنى العبودية آثار تربوية فرعية كثيرة على الفرد والأسرة والمجتمع منها:

أ- التنشئة العقدية الصحيحة لأبناء المجتمع المسلم؛ ولإعداد الإنسان الصالح الذي يعبد الله - عز وجل - على هدى وبصيرة.

ب- أن يتخلق الفرد في المجتمع المسلم بالأخلاق الفاضلة: من صدق، وأمانة، وإخلاص...؛ مقتديًا في ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي شهد له ربه سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4]، وعملاً بقوله صلى الله عليه وسلم :« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .(البخاري، 1979م، 104)

ج- تكوين الفرد المتزن نفسيًا وعاطفيًا، جسديًا وروحيًا، وذلك بحسن التوجيه وحسن الحوار مع الأطفال ، ومعالجة مشاكلهم النفسية، مما يساعد على تكوين شخص فاعل وعضو نافع لمجتمعه.

لأن الإيمان بالله هو صمام الأمان لإيجاد التوازن في الرغبات النفسية والأهواء التي هي منشأ لكثير من الاضطرابات، وبالأيمان بالله يعتدل سلوك الإنسان ويتوازن جسده مع روحه وتتكامل صورة الحياة عنده، وبالتالي سيحدث ذلك في نفسه طمأنينة والهدوء.

هـ- تهيئة والتدريب مواهب النشء ورعايتها؛ لتكوين الفرد المبدع، الذي يتمتع بالمواهب والملكات التي باتت ضرورة لتقدم المجتمعات، وذلك بتنمية قدراته على التفكير الابتكاري، ووضع الحلول للمشكلات المختلفة، وتنمية قدراتهم على التركيز والتخيل والتعبير، واستثارة الذهن بالأسئلة والمناقشات، وتوجيه الأطفال إلى الأمور التي قد تكون أكبر من سنهم، ورفع همتهم، وتنظيم تفكيرهم، والشعور بالمسؤولية، وتجسيدها على أرض الواقع، من أهم الأسس لسعادة الفرد والمجتمع، لذلك قرر الإسلام أن تبتني تربيته للناشئة والأطفال بصورة خاصة على الشعور بالمسؤولية، وهذا الشعور لا يحصل ما لم يكن هناك إيمان خالص بالله تعالى. (الشحود، 2009م، 15)

و- تكوين الفرد الصحيح جسميًا وبدنيًا، معتمدًا على نفسه دون غيره، والذي يستطيع القيام بدوره وواجبه في عمارة الأرض واستثمار خيراتها، والقيام بأعباء الاستخلاف في الأرض ومهامه، التي جعله الله خليفته فيها؛ عملاً بقوله - صلى الله عليه وسلم - : « المؤمنُ القويُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضّعيف، وفي كلٍّ الخير، فاحرص على ما تنتفعُ به، واستعنْ بالله ولا تَعجزْ... ». (مسلم، د.ت، ج4، 2052)

وإن تحقيق الآمال والنجاح في الحياة لا يحصل من دون إرادة قوية وإيمان ثابت، حيث قال الله تعالى: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: 39]. إذن، فلا بد من السعي لتحقيق الذي يسعى إليه: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ [النجم: 40].

يقول ابن القيّم –رحمه الله-في تفسير الآية: "يقتضي عدل الرب تعالى وحكمته وكماله المقدس، والعقل والفطرة شاهدان تقطع العبد طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه". (ابن القيّم،1427هـ،ج3، 84)

ولهذا أحيانا قد يتوفر الإيمان عند شخص معين بأمر ما ولكنه لا يملك الإرادة بخصوص تحقيق ذلك الأمر الذي يؤمن به، ولن يستطيع أن يصل إلى هدفه،لأن التوفيق مرهون بسعي الفرد ونشاطه، أي توفر الإيمان والإرادة معًا.

نستنتج أن الإيمان بالله وعبوديته من المبادئ الأساسية التي تجعل للمؤمن الشعور بالمسؤولية أمام واجباته، ويتحقيق السعادة في الدارين، وصمام الأمان لإيجاد التوازن في الرغبات النفسية،وحافزًا قويًا لتقدم الإنسان وارتقائه وتكامله، لذا يجب على الآباء والمربين أن يهتموا بغرس الإيمان الثابت والوحدانية في نفوس الأطفال والناشئة ،وخصوصاً في بدايات العمر بما يتناسب مع مستوياتهم العقلية والفكرية والعاطفية، حتى يكونوا سعداء ونافعين لدينهم ووطنهم .

6. الخاتمة:

وبعد أن وفقني الله تعالى لإتمام هذا البحث،تم التوصل إلى نتائج، أذكر أهمها:

1- المبادئ هي الأركان والأصول والأسس والمعتقدات عامة التي تحكم علاقات الناس ، والتي يتميز بها الصواب من الخطأ.

2- المبادئ هي الأسس الثابتة الذي يبنى عليها غيرها، وتكون سائدة عند كل الأفراد كالصدق والإخلاص والوفاء بالعهد، بينما القيم تتغير من مجتمع إلى آخر لذلك فهي قابلة للتغيير حسب المبادئ والمعتقدات لتلك المجتمع كالعلم والمال، وأفضل مبادئ هي ماجاءت في كتاب الله وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

3- لقد اهتم ابن القيّم بالجانب التربوي في تفسيره، ومن أهم الجوانب التربوية التي وجدتها في تفسير ابن القيّم هو جانب التربية الإيمانية التي تضمها الإيمان بالله وتوحيده. وللتوحيد تأثير كبير على حياة وسلوك مؤمن بها، من خلال علاقته بربّه ، وتعامله مع أفراد مجتمعه.

4- أن القرآن الكريم مشتمل على جميع أنواع التوحيد- من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات-، كما يقول ابن القيم: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، وشاهدة به، وداعية إليه.

5- وأوصي في ختام هذا البحث : أن أول ما يجب على المربيين والمعلمين الاهتمام به هو غرس مبدأ التوحيد في نفوس الناشئة والمتعلمين ورعايته، وربطهم بخالقهم سبحانه في جميع شؤون حياتهم، وذلك عن طريق المناهج الدراسية خاصة التربية الإسلامية في الوزارات المعنية،وأيضاً قيام الباحثين من طلبة الدراسات العليا بإجراء الدراسات التي تتناول أثر الإيمان بالله والتوحيد في جوانب الحياة المختلفة بشكل موسع .

قائمة المصادروالمراجع:

بعد القرآن الكريم

أولًا: السنة النبوية:

الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري.(2002م). مُخْتَصَر صَحِيحُ الإِمَامِ البُخَارِي، مكتبة المَعارف للنَّشر والتوزيع: الرياض،ط1، 1422هـ-2002م.

البخاري، محمد بن إسماعيل.(1979م). الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية ومكتبتها: القاهرة،ط2 .

الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك.(1975). سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكروآخرون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر،ط2، 1395هـ-1975م.

الحاكم، أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري(1342هـ). مع ذيله(تلخيص المستدرك) للإمام الحافظ شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد الذّهبي، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة : حيدر آباد: الهند، ط1 ، 1342هـ..

مسلم، بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري.(د.ت). الجامع الصحيح، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي : بيروت.

ثانيًا: الكتب:

آل سعدي، أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد.(1421هـ). القول السديد شرح كتاب التوحيد، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد : المملكة العربية السعودية ،ط2 ، 1421هـ..

ابن رجب، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين احمد البغدادي ثم الدمشقي.(1953م). الذيل على طبقات الحنابلة ،تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنةالمحمدية:القاهرة،1372هـ.

ابن القيّم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية.(1427هـ). بدائع التفسير، جمعه : يسري السيّد محمد، راجعه:صالح احمد الشامي، دار ابن الجوزي : السعودية،طبعة جديدة،1427 هـ.

ابن القيّم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية.(1996م). مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، التحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي : بيروت الطبعة: الثالثة، 1416 هـ - 1996م .

ابن القيّم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية.(1991م). إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية : بيروت، ط1، 1411هـ - 1991م.

ابن كثير،الحافظ الدمشقي.(1988م) . البداية والنهاية ، مكتبة المعارف:بيروت،ط7، 1408هـ.

ابن عثيمين، محمد بن صالح بن محمد.(1414هـ). القول المفيد على كتاب التوحيد، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية ،ط2، (1424هـ)،ج11،1.

ابن عثيمين، محمد بن صالح بن محمد.(1413هـ). مجموع فتاوى ورسائل، جمع وترتيب : فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن - دار الثريا :الطبعة : الأخيرة ، 1413 هـ)،ج1.

ابن منظور. (1414هـ). لسان العرب. دار صادر ، بيروت،ط3.

ابو زيد، بكر عبد الله.(1423هـ). ابن قيم الجوزية حياته آثاره موارده، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية ،النشرة الثانية.

الأموي، وليد بن حسني بن بدوي بن محمد.(د.ت). معجم اصحاب شيخ الاسلام ابن تيمية.

ابن فارس، أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين.(1979م). معجم مقاييس اللغة، دار الفكر-سوريا، ط1399،1هـ - 1979م.

الأصفهانى، الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد .(1412هـ). المفردات في غريب القرآن، التحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت،ط1.

ابن العماد، أبي الفلاح عبد الحي الحنبلي.(1979م). شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب، دار المسيرة: بيروت، ط2، 1399هـ-1979م)،ج6.

بدران، عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم بن محمد.(1985). منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ، مكتب الإسلامي للطباعة والنشر ،دمشق،ط2.

خياط، د.محمد جميل بن علي.(1996م). المبادئ والقيم في التربية الإسلامية، مركز البحوث التربوية والنفسية: مكة المكرمة،1996.

الزنتاني، د.عبد الحميد الصّيد.(1993م). أسس التربية في السنة النبوية، دار العربية للكتب: ليبيا، وتونس، ط2، 1993م.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله.(1998م). التحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان، 1419 هـ.

السقاف، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر .(1433هـ). الموسوعة العقدية، موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net ، تم تحميله في ربيع الأول 1433 هـ ، الكتاب مرقم آليا،ج1.

الشحود، علي بن نايف.(2009). الخلاصة في أصول التربية الإسلامية، دار المعمور:بهانج-ماليزيا، ط1430،1هـ-2009.

الشامي، صالح أحمد.(2008م). الإمام ابن القيّم الداعية المصلح والعالم الموسوعي، دار القلم ،دمشق،ط1، 1429.

الّصفدي، صلاح الدين خليل بن ابيك.(1988م). أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق:د علي ابو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر: بيروت،دمشق: دار الفكر، ط1418،1هـ .

صالح، د.آراس محمد. (2010م). "مبادئ التربوية في القرآن الكريم" .مجلة آداب الرافدين،139،57. 1431هـ .

عمر، أحمد مختار.(2008). معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة،ط1 ،1429هـ-2008م.

الغنيمي، محمد مسلم. (1981).حياة ابن القيم، دار الفكر، بيروت، ط1401،2هـ .

الفيروز آبادى، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب(2005). القاموس المحيط، تحقيق بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت - لبنان ، ط8، 1426 هـ - 2005 م.

فوزان، صالح بن فوزان بن عبدالله.(1987). بيان حقيقة التوحيد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، إدارة الثقافة والنشر، 1408 هـ-1987م.

الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري.(د.ت). كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ط،د.ت)،ج8.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين.(1964م). الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبي-، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية : القاهرة، ط2، 1384هـ - 1964 م)،ج1.

القرضاوي، د.يوسف.(2010م). حقيقة التوحيد، مكتبة وهبة: القاهرة،ط9، 1431هـ ،2010م.

مدكور، ابراهم.(1989م). معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، القاهرة،الطبعة المنقحة،1409هـ 1989م،ج1.

مدكور، ابراهم.(1983). المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، هيئة المطابع الأميرية: القاهرة،د.ط، 1403هـ-1983م.

محمد، د.مظهر محي. (2017م). "القيم الخُلقية في منهج النبوي الشريف". مجلة العلوم الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية، الجامعة العراقية،بغداد،2017.
المرسي، كمال الدين عبد الغني.(1998م). من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي، دار المعرفة الجامعية: ط1، 1419هـ-1998م.
مرسي، محمد منير.(1999م). أصول التربية، عالم الكتب، د.ط،1999م.
المراغي، عبد الله بن مصطفى.(1947م). والفتح المبين في طبقات الأصوليين، مطبعة انصار السنة محمدية، 1366هـ-1947م،ج2 .
مصطفى، ابراهم وآخرون.(2008) المعجم الوسيط، مطبعة شروق الدولية، ط4، 1429 هـ - 2008م،ج1.
المناوي، عبد الرؤوف.(1990م). توقيف على مهمات التعاريف، التحقيق : عبد الحميد صالح الحمدان، عالم الكتب ،القاهرة، ط1، 1410هـ ،1990م.
النحلاوي، عبد الرحمان. (1985م). التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة، مكتب الإسلامي،و مكتبة أسامة، بيروت و الرياض،ط2، 1405هـ.
يسري، أبوعبدالله محمد.(د.ت). علم التوحيد عند أهل السنة والجماعة، المبادئ والمقدمات.
ياسين، د. محمد نعيم.(د.ت). الإيمان،أركانه،حقيقته ،نواقضه، دار عمر بن الخطاب للطباعة، الأسكندرية، د.ت.

ثالثًا : بحوث جامعية:

عبد الحميد، جمال محمد الشيد.(1990)." ابن القيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها"، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة،1411هـ-1990م.
فولي،محمد نبيل.(2014م)."التوحيد:مكانته ومميزاته في العقيدة الإسلامية"،مجمع البحوث الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية، باكستان، 1436هـ، مجلد 49، العدد2.
القحطاني، محمد بن عبدالله بن جابر. (1427هـ)."اختيارات ابن القيم وترجيحاته في التفسير"،بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه في القرآن وعلومه،جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية أصول الدين، قسم القرآن وعلومه،ج1.
محمد، د.مظهر محي. (2017م). "القيم الخُلقية في منهج النبوي الشريف". مجلة العلوم الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية، الجامعة العراقية، بغداد،2017.